دور العامل الجغرافي في التاريخ عند هيغل

الدكتورة منيرة محمد*

الملخص

ليس التاريخ في جوهره سوى تجلٍ لنشاط الروح وهي تعمل على اكتساب المعرفة بما تكونه بالقوة. إنه مسار تكافح فيه الروح من أجل أن تعي ذاتها وعياً مطلقاً، ومن أجل أن تمتلك حريتها. على مسار تقدمه تفض الروح نفسها، وتظهر فكرة الروح في تجسدها الفعلي على أنها سلسلة من الصور الخارجية – التجسدات العينية تتكشف كل منها بوصفها روحاً قومية لشعب أو لأمة تاريخية موجودة بالفعل . وهذا الوجود يندرج تحت مقولة الزمان كما يندرج تحت مقولة المكان. إن الحدث التاريخي – الحضاري يتم بالضرورة في مسرح هو الأرض، وفي مكان ما محدد منها تحضر فعالية جغرافيته وتتحكم معطياته على اختلافها في تحديد أهمية ذلك الحدث، وتعطيه أبعاده، وتحدّد حجم وفعالية حضوره على المسرح الحقيقي للتاريخ الكلي. إن الجغرافية هي إحدى حقائق التاريخ وإحدى مقولاته أحد العوامل الكبرى الفاعلة والمؤثرة في العملية الشاملة لصناعة أحداثة، تحكمت في ظهور المدنيات في مواقع وأقاليم جغرافية محددة على سطح الأرض، ومنعتها أو حالت وتحول دون ظهورها في مواقع وأقاليم أخرى. كما تحكمت وتتحكم في اتصالاتها وصلاحها

* قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

وازدهارها وتفاعلها، ورسمت مجرى ومسار وكيفية تقدم خُطَا حركتهـــا ومراحلهـــا الجزئية منها – بدءاً من الصين شرقا فالهند فبلاد فارس والرافدين وسورية ومـــصر بعد استبعاد كامل للقارة السمراء والعالم الجديد – والكبرى (العالم الـــشرقي، العـــالم اليوناني– الروماني، العالم الغربي). وتبقى العامل الفاعل الكامن خلف إمكانية استقراء آفاق مستقبل ما سيعقب من مراحل .

عزا هيغل لطبائع الجغرافية وخصائص المكان دوراً فاعلاً وآسية في تكوين عقلية الشعوب وطبائع الأمم التي تحيا بين ظهرانيه، وفي تعيين كيفيات وأحوال وجودها، ومظاهر وطبائع عمرانها ومدنياتها. وفي تحديد حجم وفعالية حضورها على مسرح التاريخ والحضارة البشريين. وقد جعل منها إحدى حقائق التاريخ، وأحد العوامل الكبرى المؤثرة فيه، تحكمت في ظهور المدنيات ومراكز الإشعاع الحضاري في مواقع محددة على سطح البسيطة ومنعتها وحالت دون ظهورها في مواقع أخرى، تحكمت في اتصالها وفي صلاحها وفي كيفيات ومظاهر وآليات تفاعلها وفي حدود ذلك وأبعاده .

فكيف يأتي فعل الجغرافية أثره عند هيغل في تكوين عقلية أبناء الجماعة البشرية التي تحيا بين ظهرانيه كيف يأتي فعله –سلبياً كان ذلك الفعل أم إيجابياً – في صناعة التاريخ البشري وفي توجيه مسار تقدمه. وما هي حدود وكيفيات وحجم فعالية دوره ذاك في العملية الشاملة لبناء التاريخ والحضارة البشريين بشكل عام، وفي عملية بناء التواريخ الخاصة لحضارات الأمم والشعوب على اختلافها واختلاف مواطنها، وفي كل ما يؤدي إليه ذلك من أحوال وأوضاع في مختلف مناحي واقع حياتها المعاش، وعلى صعيد الروح والفكر أيضاً.

عند آراء هيغل في ذلك سنقف، وفي أبعاد ومضامين رؤيته لكيفية وحدود فعل العامل الجغرافي في التاريخ سنبحث، منطلقين في بحثنا هذا من نقاط أربع رئيسة يقتضي الفهم السليم لطبيعة فعل الجغرافية في التاريخ عند هيغل ضرورة الأخذ بها، ومن ثم البناء بمقتضى ما تنطوي عليه آراؤه فيها :

النقطة الأولى: إن التاريخ عند هيغل تاريخ الروح، إنه مسار تكافح فيه الروح لكي تعي ذاتها وتمتلك حريتها، وهو ليس في جوهره سوى تجلٍ لنشاط الروح وهي تعمل على اكتساب المعرفة بما تكونه بالقوة. تحقق إمكاناتها وتجعل من ذاتها صنيعة نفسها، فتتأمل نفسها في العالم بوصفها وجوداً متحققاً بالفعل، متجسدة في كل مرحلة

من مراحل تقدمها في مكان ما، في روح شعب أو أمة ما، وعلى نحو تكون فيه أرواح الشعوب أو الأمم فرديات تاريخية، ليست في حقيقتها سوى تميزات للطبيعة الجوهرية للروح . ولذلك العنصر العقلي في التاريخ الذي يضفي اتساقاً على المجرى المعنوي للأحداث والوقائع[1]. وتكون مبادئ المراحل المتتالية لتجسدات الروح التي تبعث الحياة في تلك الأمم ليست هي نفسها إلا خطوات فحسب في مسار تطور روح كلي واحد، يرتفع من خلالها ويكمل نفسه ليصل إلى مرحلة الشمول الكلي الذي يحوي ذاته[2].

النقطة الثانية :إن التاريخ عند هيغل (هو باستمرار على جانب من الأهمية بالنسبة إلى أي شعب من الشعوب، فبوساطته يصل الوعي بذاته بطريقة روحية خالصة تنعكس في العادات والأعراف والأعمال وفي القوانين بوصفها عادات ومؤسسات هي بالطبيعة العنصر العقلي الدائم بصفة عامة... التاريخ يعطي للشعب صورته . . وبدون التاريخ سيكون وجود هذا الشعب في الزمان ليس سوى وجود هو في ذاته أعمى، ولعبة متكررة للإدارة العشوائية في أشكال متعددة. . إن التاريخ يثبت ويضفي اتساقاً على هذا المجرى العفوي للأحداث ويعطيه صوره الكلية...).[3]

النقطة الثالثة: إن المكان، الأرض عند هيغل (ليست مجرد كوكب صغير تابع للشمس فحسب بل هي المركز الميتافيزيقي للعالم، لأنها مقام الإنسان حامل الروح، وليس للمكان للطبيعة من قيمة [عنده] إلا بمقدار ما تجعل مجيء الوعي والفكر ممكناً[4]. إلا بمقدار ما تهيئ لمجيء الروح.[5]

---

1 هيغل: (أصول فلسفة الحق) مج1، ترجمة د. إمام إمام، دار التنوير بيروت ط2، 1983 ص14.

2 هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) ترجمة د. إمام إمام، دار التنوير بيروت ط2، 1982

3 هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ: العالم الشرقي) ترجمة د. إمام إمام، دار التنوير بيروت، ط2 ، 1983، ص132

4 سيرو. رينيه: (هيغل والهيغلية) ترجمة نهاد رضا، دار الأنوار، بيروت، ص41

النقطة الرابعة : إن الطبيعة بوصفها تشكل مجموعة الشروط الطبيعية للحياة، فإنها بذلك تظل الأساس الأول للتاريخ، وهو ماينبغي أن يبنى عليه (.. ليس يعنينا أن نعرف الأرض التي تمثلها أمة من الأمم باعتبارها موقعاً محلياً خارجياً، وإنما مجال اهتمامنا هو النمط الطبيعي للموقع المحلي من حيث صلته الوثيقة بنمط الشعب وشخصيته التي هي ثمرة لمثل هذه التربة، هذه الشخصية ليست أكثر ولا أقل من الحالة والصورة التي تظهر بها الأمم في التاريخ، وتأخذ مكانها ومركز ما فيها...)[6].

أولاً : جدلية العلاقة بين حدود ثلاثية التاريخ :

إن العلاقة بين الطبيعة وما يقوم بين ظهرانيها من مختلف الفعاليات والأنشطة البشرية والأعمال على اختلافها واختلاف أشكالها وأنواعها، هي عند هيغل علاقة جوهرية لاعرضية سطحية على نحو ما قد يتراءى عليه الأمر في ظاهر الأحوال . علاقة أساس يبنى عليها، وتستنبت مع الأيام واقع حال جماعات بشرية وأحوال كيانات سياسية وممالك، وأوضاع حضارات، وفي هذا قوله: (إن العلاقة مع الطبيعة التي تساعد على إنتاج روح شعب ما، إذا ما قارنا بينها وبين شمول الكل الأخلاقي وبين وحدة تلك الفردية التي هي مبدأها الفعال تبدو عنصراً خارجياً، لكن بمقدار ماينبغي أن ينظر إليها على أنها الأرض التي تتحرك عليها الروح وتؤدي دورها فإنها تكون أساساً جوهرياً وضرورياً).[7]

والمكان كما الزمان والعامل البشري عند هيغل مقولة رئيسية أيضاً، تتدرج تحتها في كل مرحلة من مراحل تقدم التاريخ والحضارة البشريين حلقة من التجسدات

5 –ستيس. ولتر. هيغل (المنطق وفلسفة الطبيعة)ترجمة إمام إمام، دار التنوير، بيروت، ط2، 1982، ص308–318

6 هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) : ص 157 .

7 هيغل: (المصدر نفسه) : ص 157.

المتعاقبة لحياة الروح، تتمثلها في زمانها ومكانها وتجسدها روح قومية لأمة ما أو لشعب تاريخي ما، ويكون لها سماتها التي تميزها عن الأرواح القومية للأمم أو الشعوب التاريخية الأخرى. تحمل راية كفاح الروح لتحقيق درجة أعلى من درجات تقدم وعيها بحريتها مدة زمنية ما قد تطول أو تقصر، لتعقبها في أمر تحقيق ذلك روح قومية لشعب آخر أو لأمة أخرى وفي مرحلة زمنية أخرى، تنطوي كل منها على حقيقة أن الروح الكلي وهي تجعل نفسها موضوعية، فإنها تدمر من ناحية الصورة الجزئية المعينة لوجودها، أي الروح القومية للشعب التاريخي الراهن وتظفر من ناحية أخرى بفهم شامل للعنصر الكلي الذي يتضمنه هذا الوجود. وكلما نجحت في تدمير صورة جزئية منها ظفرت بوعي أكثر بذاتها وبحريتها، وتضفي بذلك شكلاً جديداً على مبدأها الباطن الذي لم يخرج هكذا من تربة الزمن الحاضر للمرحلة التاريخية الراهنة فحسب، لكنه بالنسبة إليها إرث عقلاني، هو تراثها العقلاني الذي هو في الواقع محصلة عمل الأجيال كلها[8]، والذي يتكشف عن حقيقة أن ما تنجزه كل روح قومية لأمة تاريخية سابقة ترثه الأرواح القومية للأمم التاريخية اللاحقة، تكتنهه وتتمثله وتستوعبه وتكونه مضيفة إليه خلاصة عبقريتها مشكلة من هذا وذاك روحها القومية ومادتها الفكرية التي ستغدو هي بدورها أيضاً تربة صالحة في العملية الشاملة لاستنبات روح قومية لشعب تاريخي آخر– وبين ظهراني منطقة جغرافية أخرى وفي ذلك قوله: ((إنه في تاريخ العالم تظهر فكرة الروح في تجسدها الفعلي على أنها سلسلة من الصور الخارجية، تتكشف كل منها بوصفها شعباً موجوداً بالفعل، هذا الوجود يندرج تحت مقولة الزمان كما يندرج تحت مقولة المكان على طريق وجود الأشياء

8 –هيغل:(محاضرات في تاريخ الفلسفة)ترجمةخليل خليل، المؤسسة الجامعية، بيروت ط1، 1986، ص20–21

الطبيعية))[9]. حيث الطبيعة شرط أساس من شروط تجلي الروح لدى هذا الشعب أو ذاك.[10]

وعناصر الطبيعة وما تمثله في الواقع من أحوال وأشكال وجود ومظاهر وعلى الأخص منها الأنهار والبحار، ليست أدوات فصل وتفرقة بين الأمم والشعوب والدول والأقاليم، وهي لا تشكل روابط مادية خارجية بين تلك الأمم والشعوب أو الأقاليم والدول، وليس لها من ذلك الأثر في حياتها. وأحوال وجودها.

بل هي وفق الرؤية الهيغلية لدور العامل الجغرافي في التاريخ عوامل ربط وتقريب وتوحيد بين الأمم والشعوب والبلدان والدول. يحضر فعلها الإيجابي الأثر أو السلبي بشكل مباشر أو غير مباشر في حياة الجماعة البشرية وفي كيفيات وأحوال اجتماعها وقيامها وفي ذلك قوله:(إن الأنهار والبحار ينبغي أن لاينظر إليها على أنها أداة فصل وتفرقة، وإنما أداة ربط وتوحيد لقد اتحدت انجلترا و بريتاني والنرويج والدانمارك والسويد وليفونيا وبالمثل فإن البحر الأبيض المتوسط كان عنصر ربط دائم ومركزاً لتاريخ العالم بالنسبة إلى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية. ترتبط القارات الثلاث التي يتوسطها فيما بينها بعلاقة جوهرية يشكل شمولها كلياً واحداً. والسمة المميزة لهذه القارات هي أنها تقع حول هذا البحر، ومن ثمَّ فلديها وسيلة سهلة للاتصال)[11].

وضمن السياق ذاك رأى هيغل، أنه إن كان من مقتضى العادة أن ينظر إلى عناصر الطبيعة على أنها عوامل فصل بين الأمم والشعوب، فإن من مقتضى الفهم

9 هيغل : (محاضرات في فلسفة التاريخ : العقل في التاريخ) ص158 .

10 هيبوليت. جان: (مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيغل) ترجمة أنطون حمصي، وزارة الثقافة دمشق 1969، ص25

11 هيغل : (محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) ص166 .

الصحيح لطبيعة دور تلك العناصر وأثرها ضرورة إعادة النظر في هذا. والـذي وإن كان يصدق في جانب منه– حسب رأيه– على أثر فعل الجبال، فإنه لا يـصدق أبـداً على فعالية وحضور فعل النهار والبحار. فالبحر يحضر عنده بوصفه عاملاً إيجابيـاً فاعلاً ومحركاً يتسع التاريخ كله، ويجسد الجغرافية البشرية لحضارات شعوبه وأممه. فهو يدفع الإنسان لتجاوز نطاق محدوديته وتناهيه وكسر قيودها. والانطـلاق لرسـم آفاق واقع مستقبل أرحب، والانعتاق من مشاعر إحساسه بضعفه وعجزه، والامـتلاء مقابلها بفيض من الإيمان بقدراته، يدفعه للإقدام والمغامرة، لكن لا المغامرة المنعتقـة من عقال التفكير والعقل. بل المغامرة المحسوبة النتائج. ويكسبه الجرأة والـشجاعة، لكن لا الجرأة التي تقود إلى الهلاك والدمار، بل الجرأة التي تستبطن الحكمة والصبر، وتستشرف عواقب الأمور وما يمكن أن تؤدي إليه الأحوال (.. لقد اعتـدنا أن ننظـر إلى الماء على أنه عامل انفصال وتقسيم. وأن الدول لابد أن تكـون قـد انفـصلت بواسطة تضاريس طبيعية. . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول: إنَّ الجبال وحدها هـي التي تفصل وتقسم وأن نسوق على العكس من ذلك مبدأ أساسياً هو أنْ لاشيء يـربط ويوحد كما يفعل الماء، لأن البلاد ليست شيئاً آخر سوى أحواض الأنهار. إن بوهيميا وسكونيا هما نهر الألب، ومصر هي وادي النيل، وتلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلـى البحر. لم يصبح البحر المتوسط مركزاً للحياة القومية إلا لكونـه بحـراً فحـسب. إن البحر يعطينا فكرة اللامتعين واللامحدود، واللامتناهي، يدفع الإنسان إلى تجاوز نطاق المحدود، ويخرجه من تلك المجالات المحـدودة للفكـر والـسلوك التـي تفرضـها الأرض..)[12].

12 هيغل :(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ)ص 183.

ثانياً: مجرى تاريخ العالم وجدل تقدم الوعي بالحرية:

على الرغم من إشارة هيغل إلى ضرورة التعقل في تقدير دور الجغرافية في عملية بناء التاريخ والحضارة البشريين . والتنبه جيداً إلى الكيفية التي على نحوها ينبغي علينا أن ننظر إلى فعله، فلا نبالغ في تقدير حجم هذا الدور ولا نقلل منه أو نهون من شأنه[13]. فإن هيغل قد بالغ في تقدير حجم فعل ذلك العامل في بناء تاريخ وحضارات الأمم، فقد رسم – من جهة– وفي الإطار العام مساراً جغرافية وحدد مواطن لكيفية تقدم مراحل التاريخ والحضارة البشريتين ولماهية ذلك التقدم (حد بدايته في المشرق كما شروق الشمس، وحد نهايته في الغرب كما غروب الشمس)[14]، كما حدد خُطَا السير وطبائعه بين هذه وتلك، بدءاً من الصين حيث الخطوة الأولى في مسار التقدم ذاك فالهند فبلاد فارس وبلاد الرافدين والساحل السوري فمصر مروراً بالعالمين اليوناني والروماني، ومن ثم إلى العالم الغربي حيث يبلغ مسار التقدم ذاك كمال نضجه متجاوزاً حقيقة (أن الاعتراف بنمط معين لأحداث التاريخ أو تصور معين تكون عليه أو قد تكون شيء. واستنباط مسار فيزيقي طبيعي لمسار تقدم التاريخ البشري وطبائع مراحله شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن حقيقة قيام ذلك واقعاً)[15].

ومن جهة أخرى جعل الروح مع ذلك المسار، أي بحسب معطيات طبائع جغرافية وخصائص الأمكنة التي تحيا على ربوعها . تعمل في الزمان وفق خطة كاملة محددة مرسومة الغاية والوسيلة والهدف لكنها (ليست سكونية، بل جدلية خطا

13 هيغل :(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ)ص 128.

14 هيغل :(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ)ص 183.

15 رسل : برتراند، حكمة الغرب، ج2، ترجمة فؤاد زكريا عالم المعرفة العدد2 الكويت، 1983، ص173.

السير والعمل)[16]. تستغرق مسار التقدم ذلك كله، وعلى امتداد مراحله الكبرى العالم الشرقي، العالم اليوناني – الروماني، العالم الغربي، وفي الخُطا الجزئية أيضاً الصين، الهند . . الخ . تحقق إمكاناتها وتكشف عن طبيعتها وتفض مضمونها متخصصة في الأرواح القومية لشعوب تلك العوالم، والتي تجسد كل روح قومية منها إشباعاً جزئياً خاصاً لها، يكون هو نفسه مادة جديدة لنشاطها التكويني في مرحلة لاحقة وذلك (لأن الروح وهي تستهلك غلاف وجودها أرواح الأمم لا تنتقل إلى غلاف آخر ولا تنهض فحسب بل تجدد شبابها من رماد صورتها القديمة، ففي داخل عملية الدمار ذاتها تغزل الروح ذلك الوجود في صورة جديدة . . . وترتفع بنفسها إلى مرتبة جديدة . .)[17].

وضمن حدود رؤيته تلك فإن هيغل قد :

1- أخرج المنطقتين الجنوبية الحارة والشمالية الباردة من مواقع قيام الحدث أو الفعل التاريخي- الحضاري. واستبعد بشكل تام قيام أو حتى إمكانية قيام حضارة بشرية على امتداد مساحة هاتين المنطقتين. لأن الطبيعة السلبية لطبائع جغرافية المكان هنا تمتد لتشمل مختلف جوانب الحياة وأشكال الوجود وأحواله كلها، تحدّد طبائع أناسها، وتحكم مختلف أوجه فعالياتهم وأنشطتهم البشرية وتقيدها، ولاتسمح بفك إزار قيود ضروراتها الطبيعية والانطلاق لبناء آفاق مستقبل جديد، وفي ذلك قوله (في المنطقتين المتجمدة والحارة لا توجد تلك الظروف الطبيعية ولا ذلك الموقع الطبيعي المحلي المناسب لظهور شعوب التاريخ العام ذلك لأن الوعي المستيقظ هنا يظل محفوفاً بالمؤثرات الطبيعية. وكل تقدم له انعكاس الروح على نفسها في

16 برينتون:كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة الكويت العدد 82، 1984 ص223.

17 هيغل :(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) ص 148.

مقابل الطبيعة، فالبرد والحر في تلك المناطق من القوة بحيث لا يسمحان للـروح أن تقيم عالماً لذاتها . .)[18].

2– أخرج العالم الجديد بشكل عام من مسرح تاريخ العالم إلى حينه[19]. ورأى أن هذا الجزء من العالم ليست جديدة معرفتنا به فحسب، ولكنه جديد أيـضاً مـن الناحيـة الداخلية، من زاوية تكوينه الفيزيقي– السيكولوجي ومن ثم حكم بأن لاشيء في هذا العالم يشير لقيام تاريخ، أو لظهور أي شكل من أشكال أو دلالات تقدم وعي للروح بذاتها. فلا فعاليات العامل البشري تنطوي على ذلك بل إن سكان هذا العالم قد بقوا على حال الطبيعة وخشونتها وقسوتها، بقوا على ما هم عليه من ضـعف جـسدي وبلادة عقلية وخمول نفسي وكسل ونقص في الحيوية والنـشاط وميـل للطاعـة والإذعان وقد باءت بالفشل كل الجهود التي بذلها الأوروبيون لتغيير واقع حـالهم القاسي وتعليمهم الثقافة والعادات الأوربية. ولم يفلحوا في بث روح الاستقلال فـي نفوسهم والاندفاع لتجاوز واقع حالهم. ولا عناصر المكان وطبائع الجغرافيـة فـي ذلك العالم بشكل عام وفي القسم الجنوبي بشكل خاص– حيث سلسلة الجبال تكـون شريطاً يكاد يخنق الساحل في أماكن عدة و السهوب الصحراوية واسعة– تحـضر هنا بوصفها وسطاً أو بيئة طبيعية وعاملاً إيجابياً يمهد لنشأة تاريخ وظهور وعي. ولا يشكل خليج المكسيك الذي يربط قسمي ذلك العالم سوى رابطة خارجيـة. ولا يحضر فعله هنا– على الرغم من أن الأنهار والبحار هي عند هيغل أدوات ربـط وتوحيد بين الأمم والأقاليم – بوصفه عاملاً إيجابي الأثر وفاعلاً في إثـراء حيـاة الجماعة البشرية لذلك بقيت ثقافة ذلك العالم ((وطنية تماماً تنقـضي بمجـرد مـا تقترب الروح منها. وقد أظهرت أمريكا نفسها باسـتمرار أنهـا ضـعيفة فيزيقيـاً وسيكولوجياً، ولا تزال تبدو كذلك))[20].

18 هيغل :(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ)0 ص 158
19 الشيخ . رأفت غنيمي. (فلسفة التاريخ)دار الثقافة، القاهرة، 1988، ص149–150
20 هيغل:(= = = = = =). ص159، 160– 166

3- حدد هيغل المسرح الجغرافي لتاريخ العالم، والوسط الطبيعي لظهور الوعي وتقدمه بحدود جغرافية العالم لكن لا العالم القديم بحدود مساحة قاراته الثلاث إفريقية و أوروبة وآسية. بل بما تساعد عليه طبائع الجغرافية في كل قارة منها على نحو ما يراه ((.. فإذا ما استبعدنا العالم الجديد وانتقلنا إلى العالم القديم، أعني إلى مسرح تاريخ العالم، كان لابد أن نتناول أولاً العناصر الطبيعية وما تمثله من ظروف..))[21]. وإذ ميز في تضاريس هذا العالم بين عناصر جغرافية ثلاثة رئيسية، الأرض المرتفعة، السهول الوديانية، المنطقة الساحلية، فقد جعل من كل عنصر منها سمة مميزة الطبائع جغرافية قارة من قاراته. ومن ثم ربط وبشكل غائي ولما يخدم تصوره لمسار تقدم التاريخ البشري بين تلك العناصر وذهنية البشر القاطنة بين ظهراني تلك القارة (.. لابد لنا أن نحدد بطريقة أكثر دقة، الفروق الجغرافية الخاصة، ولابد من اعتبارها فروقاً جوهرية وعقلية، في مقابل تنوع الظروف العرضية وهناك في هذا الصدد ثلاثة فروق أساسية هي على وجه الخصوص الأرض المرتفعة القاحلة- إفريقية. . . السهول الوديانية-آسية . . المنطقة الساحلية-أوروبة..)[22].

وضمن إطار رؤيته تلك حكم هيغل بحضور وفاعلية دور كل قارة من قارات ذلك العالم في العملية الشاملة لبناء التاريخ وتقدم وعي لذاتها، وامتلاكها لحريتها، فعمل على:

أ- إخراج القارة السمراء بأكملها من دائرة مسرح الحضارات. لأن الطبيعة السلبية لفعل الجغرافية هنا ترخي بظلالها وبقوة وقسوة على كل مكون من مكوناتها . تحد طبائع الأشياء كما تحد طبائع البشر وأحوال وجودهم واجتماعهم، وهي لا تسمح على الرغم من ثراء إمكانيات تلك القارة وغنى ثرواتها بأي شكل من أشكال الاتصال فيما وراء إطارها، ولا تسمح بكسر ربقة اتصالها بالطبيعة، والذي يكاد

21 هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) ص 166

22 هيغل :(= = = = = =) ص171، 168-186 .

يكون كاملاً والانعتاق والنهوض وتجاوز واقع حال طبيعيتها، وما يفرضه من ضرورات وأحكام، ولذلك ظلت إفريقية على حد قوله على الأصالة على قدر ما يستطيع التاريخ أن يعود القهقرى مغلقة أمام جميع أنواع الاتصال مع بقية أنحاء العالم، إنها أرض الذهب المنضغط داخل ذاته، أرض الطفولة التي ترقد فيما وراء نهار التاريخ الواعي لذاته يلفها حجاب الليل الأسود، ولم تنشأ شخصيتها عن طبيعتها الاستوائية فحسب، وإنما من تكوينها الجغرافي أساساً، لذلك علينا أن نترك إفريقية عند هذه النقطة من الحالة الطبيعية لأنها ليست جزءاً من تاريخ العالم.. والواقع إن ما نفهمه من اسم إفريقية هو الروح غير المتطور الذي لا تاريخ له ولا تطور، والذي لا يزال منغلقاً تماماً، والذي ينبغي أن يعرض هنا بوصفه واقعاً على عتبة تاريخ العالم فحسب[23].

ولا العامل البشري الذي يقطن على ربوع تلك القارة جراء قسوة طبائع البيئة الفيزيقية تلك، ينظر إلى ما هو أبعد من واقع حال طبيعيته، ولا يشغله أكثر من هم المحافظة على البقاء والسعي الدؤوب للتكيف وظروف الطبيعة الصعبة وما تفرضه من قيوده. لا بل ولا هو يملك بالطبع القدرة على تجاوز ذلك والتطلع إلى آفاق مستقبل أفضل. فالرجل الزنجي عنده يمثل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة، والسمة البارزة لحياته هي أن الوعي لم يبلغ عنده بعد مرحلة التحقق الفعلي لأي وجود موضوعي جوهري، ولاشيء يتفق مع الإنسانية يمكن أن يوجد في هذا النمط من الشخصية، لا بل إن أبرز ما يميزها هو أنها تفتقر إلى ضبط النفس، وتلك حال بالطبع تعجز عن أي تطور، وعن أي ثقافة ولهذا كان الزنوج أبناء تلك القارة باستمرار على ما هم عليه[24]. فحيث حال الطبيعة لا إمكان لظهور وعيٍ لروحٍ، أو لحديثٍ في صناعة تاريخٍ. ومع تلك المعطيات البشرية والطبيعية فإن من الطبيعي الحكم بأن

23 هيغل: (= = = = =)ص172، 183.

24 هيغل : (محاضرات في فلسفة التاريخ : العقل في التاريخ) ص 174، 181.

ليست هنا البيئة الطبيعية– البشرية لاستنبات أحداث معرفية تاريخية تكون مع الأيام جزءاً مكوناً وفاعلاً في حركة الفعل التاريخي – الحضاري (إن إفريقية لا تزال على الطبيعة. والتاريخ الحقيقي للإنسان لا يبدأ إلا مع ظهور الوعي. ولا يبدأ في المراحل التي يكون فيها الإنسان متحداً مع الطبيعة عاجزاً عن التعرف على ذاته. إذ لابد أن ينفصل الإنسان عن الطبيعة بحيث يصبح واعياً بنفسه حتى لو ظل هذا الوعي معتماً للغاية مدة طويلة من التاريخ. فما لم يقطع الحبل السري الذي يربط الإنسان بالطبيعة فلن يكون ثمة تاريخ، لأنه سوف يفتقر إلى الوعي ومن ثمَّ إلى الحرية)[25].

ب – حدد هيغل المكان الطبيعي لمسرح تاريخ العالم بحدود مساحة قارتي آسية وأوروبة بشكل عام، وبحدود مواطن أمم وشعوب أوروبا بشكل خاص، لكن لا بامتداد المساحة الكاملة لهاتين القارتين أيضاً، بل وكما هو حال الرؤية الهيغلية في ذلك باستبعاد مسبق للقسم الشمالي والشرقي منها – لأن هذين القسمين يقعان حسب رأيه خارج نطاق التاريخ، وهما منفصلان عن مسار التطور التاريخي ولا نصيب لهما به – ومن ثم ليحكم بأن في آسية كانت خُطَا السير الأولى في مسار تقدم التاريخ وفي أوروبا اكتمل عقده، ووصل مسار تقدم الوعي كمال نضجه (.. والآن وبعد أن استبعدنا العنصر التمهيدي – إفريقية – نجد أنفسنا للمرة الأولى على المسرح الحقيقي للتاريخ، ولم يبق أمامنا إلا أن نقدم عرضاً تخطيطياً للأساس الجغرافي للعالم. آسية هي الشرق المطلق. إنها منطقة الأصل والمنشأ. لقد أشرق في آسية ضوء الروح ومن ثم بدأ التاريخ الكلي. وفي أوروبا وعلى وجه العموم مركز العالم القديم، وطرفه النهائي الغرب)[26].

وإذ خص هيغل مؤلفه (محاضرات في فلسفة التاريخ : العالم الشرقي) لتبيان أهم سمات وأبرز خصائص الأرواح القومية لأمم وشعوب ذلك العالم. ابتداءً بالصين شرقاً

25 هيغل : المصدر نفسه، ص 50.

26 هيغل: المصدر نفسه، ص183، 167 .

فالهند فبلاد فارس وبلاد الرافدين والساحل السوري ومصر. فقد عرض مع ذلك للكيفية التي على نحوها يأتي فعل الجغرافية أثره في تكوين تلك الأرواح القومية، وفي كيفيات تجسد كل روح قومية منها وعلى التعاقب لدرجة من درجات تقدم التاريخ وامتلاك الوعي والحرية. فروح الصين هي الشكل الأول الذي توجد فيه الروح في رحلتها الطويلة لكي تتحرر من الطبيعة. والروح الهندي حالم هائم بالخيال ورغم كونه عميقاً في الأرض فهو عاجز عن أن يبني تاريخا، أما بلاد فارس فمعها ندخل وأول مرة ميدان الارتباط أو الصلة بالتاريخ، والفرس هم أول شعب تاريخي والجميع يستوي هنا أمام آلهة النور . وفي بلاد الرافدين ومن ثم الساحل السوري يتفتح الوعي فعلاً ليكتمل نضجه في مصر المركب النهائي في العالم الشرقي والجسر الذي عبرت عليه الروح من الشرق إلى الغرب[27].

وبالانطلاق من تصوره العام لجغرافية مسار تقدم التاريخ والذي جعل في الشرق حد بدايته وفي الغرب حد نهايته، ومن فكرته الأساسية من (أن التاريخ سلسلة من درجات تطور الوعي بالحرية، وهو يبدأ من الحرية في حالة كمون أو في ذاتها، إلى أن يصل إلى الحرية لذاتها في الدولة، وهي النظام السياسي الذي يعبر عن التحقق الفعلي للحرية)[28]. رأى هيغل أن خصائص المكان ومكوناته قد هيأت الأسباب الكافية لقيام ممالك وإمبراطوريات بين ظهراني العالم الشرقي، وعلى الأخص مناطق السهول والوديان منه (أرض السهول والوديان التي تجري فيها الأنهار وتدين بخصوبتها للأنهار التي كونتها. أرض الصين والهند التي يخترقها نهر السند والغانج، وبابل حيث مجرى نهري الفرات ودجلة ومصر التي يرويها النيل، في هذه المناطق المتسعة نشأت ممالك مترامية الأطراف، وبدأ تأسيس الدول العظيمة حيث الزراعة

27 هيغل:(محاضرات في فلسفة التاريخ :العالم الشرقي)ص 28، 137، 142 –144، 160– 187، 202.

28 هيغل: المصدر السابق ص 182 .

وما تتطلبه تنتشر هنا بوصفها المصدر الأساسي للرزق. وهكذا تبدأ الملكية الخاصة للأرض، وما يترتب عليها من علاقات تشريعية، أعني أسس الدولة التي لا تصبح ممكنة إلا عن طريق هذه العلاقات وحدها)[29].

غير أن ممالك وإمبراطوريات العالم الشرقي عنده لم تكن لتكشف لها عن ذلك الحضور الفاعل لبناء التاريخ والحضارة البشريين، لأن عناصر الجغرافية وطبائع الأمكنة التي أقيمت على مساحاتها تفتقر إلى ذلك الامتداد فيما وراء الحدود . ولذلك بقيت أممها وشعوبها منغلقة على ذاتها وبقيت مراكز إشعاعها الحضاري وكيفيات تمثلها لوعي الروح لذاتها محدودة بحدود ومساحات ممالكها وإمبراطورياتها، وكل ما يمكن قوله في هذا: إن البدايات الأولى في سبيل بناء تاريخٍ كانت هنا. وإن كانت كيفيات تمثل الأرواح القومية لشعوب وأمم ذلك العالم لذلك الوعي تختلف باختلاف الجهات والزوايا، وباختلاف خطوط العرض والطول. تختلف بين آسية البعيدة الصين والهند وآسية القريبة – والقرب والبعد هنا من أوروبا غاية مسار تقدم التاريخ البشري عند هيغل – ابتداء من بلاد فارس والتي يجد فيها الإنسان الأوروبي نفسه وكأنه في بيته فبلاد الرافدين والساحل السوري ووادي النيل. تختلف بين منطقة جغرافية وأخرى بين مناطق جبلية أرضها مرتفعة – الرعي والترحال سبل معاش أبنائها والاستقلال الأبوي هو الرابط الوحيدة التي تجمعهم ولا ملامح تكاد تذكر لتقدم وعي وصناعة تاريخ – ومناطق السهول والوديان – حيث الزراعة هي المصدر الأساس لتحصيل رزق الجماعة وما يضمنه سبيل الرزق هذا للأبناء من استقرار وما يتطلبه بالضرورة من اهتمام وتبصر يؤديان بالضرورة إلى أن يستيقظ لديهم التفكير في فكرة عامة تختزل دلالات أولى لتقدم وعي، واكتساب ملامح أولية لشخصية تاريخية فعلاً – والمناطق الساحلية حيث يحضر العنصر الحضاري الذي يمثله البحر في أحوال الجماعة البشرية، وأحوال وجودها كلها، وفي تلك الربوع يتفتح الوعي فعلاً.

29 هيغل : المصدر نفسه ص170 .

وبالمحصلة فإنَّ كل ما تكشف عنه مسار تقدم التاريخ والوعي في ذلك العالم يتمثل في أن الجوهر الروحي في الشرق قد بقي أحادي الشكل. وأن مبدأ هذا العالم هو جوهر الأخلاق التي لم تبلغ الروح معها مرحلة الذاتية، حيث القانون والحس الأخلاقي وشؤون الروح والدين والدولة ونظام التشريع و الدستور والعلم وحتى الإرادة الذاتية والأشياء والأمور كلها هنا محكومة بقوة خارجية، الإمبراطور أو الحاكم المستبد أو الفرعون الطاغية والذي يظهر هو وحده الحر في هذا الفضاء البشري– الجغرافي المترامي. لكن حريته هذه هي في واقع الأمر حرية صورية تفتقر للمضمون الحقيقي. إنه في الجوهر عبد شهواته وانفعالاته، إنه طاغية لا إنساناً حراً[30].

جـ– بين ظهراني العالم اليوناني – الروماني تمثلت نضارة الروح وشباب التاريخ، وقد تمثل الجوهر الروحي – الأخلاقي المميز لهذا العالم أو مبدأه في التحرر الفردي للروح.[31] والذي ينطوي في جوهره وفي الأعراض على حقيقة أن ما أقيم على ربوع ذلك العالم، قد مثل قوة سياسية فكرية تاريخية حضارية مضادة لآسية. وقد كان للطابع الإيجابي لفعل الجغرافية هنا أثره التكويني الفاعل في تحقيق ذلك. حيث إنَّ الأرض هنا ليست أرضاً قارية أحادية الشكل والسمات كما هي الحال في إفريقية ومناطق عدة من آسية. بل توزعت على شكل جزر أو أشباه جزر[32] كثيرة متناثرة على شواطئ البحر لاتجد فيها القوة الجسدية الشرقية ولا مجاري أنهار كبرى متدفقة كالسند والغانج ودجلة والفرات. بل توزعاً متعدد الأشكال يتناسب مع ذات الكيانات الفردية المكونة لذلك العالم. ويكشف عن حقيقة أن تلك الكيانات وجراء تناغم عاملي الجغرافية والبشر لم تعرف ذلك

30 هيغل:(محاضرات في تاريخ الفلسفة:العقل في التاريخ)ص87، 102، 144، 172، 186

31 صبحي:د. أحمد محمود:(في فلسفة التاريخ)، مؤسسة الثقافة، الإسكندرية، ص 207

32 لوفيت: كارل(من هيغل إلى نيتشه) ج1، تعريب ميشيل كيلو، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988 ص47.

التعارض بين الكلي والفردي، أو بين شريعة الكلي وشريعة الفردي، ولم يكن الفرد فيها يشعر بأن حياة الجماعة هي مصير خارجي مفروض عليه أوهي بمنزلة حياة كلية تتعارض مع حياة الأفراد العينية. بل كان الشعب نفسه في هذا العالم جوهراً فردياً يرتفع المواطن في داخله إلى مستوى الكلية لأن المواطنين الأحرار وهم البعض هنا هم أبناء أثينا واسبرطة أو روما، أو أبناء غيرها من المدن اليونانية أو الرومانية على وجه التحديد دون غيرهم ممن يسكن تلك الربوع. ولم يكن هؤلاء يعرفون غاية أخرى يعملون من أجلها سوى مدينتهم أثينا أو غيرها من مدن وكيانات ذلك العالم، بكل ما فيها من معابد وهياكل وشرائع وعادات جمعية وأنظمة وأساليب نظر أو عمل مشتركة وفي وسط اجتماعي – طبيعي يحيا الجميع في كنفه مواطنين أحراراً، في دولة تشترط صحة القيام وقوة الوجود، وجود العبيد أو البرابرة ومن سواهم من سكان ذلك العالم والذين تنتفي عنهم صفة المواطنة[33].

د– في القارة الأوروبية يبلغ مسار تقدم التاريخ أكمل درجاته، وهنا تضيق المساحات التي يحتلها المسرح الطبيعي لتحقق الحرية عبر تاريخه عند هيغل، وتتقلص لينحصر محيط الدائرة الحقيقي لتحرك أبطال دراما الحرية بين ربوع تلك القارة وحدها. وفي المنطقة الوسطى من هذه القارة بشكل خاص . لابل في وسط هذا الوسط بشكل أكثر خصوصية حيث تقوم الأمم الجرمانية مجسدة عنده أكمل أشكال الحرية (الحرية بنظامها الكلي الشامل. ففي تلك الربوع وصل العقل إلى حقيقة أن الحرية هي عين وجود الذات)[34].

33 إبراهيم :د. زكريا: (هيغل أو المثالية المطلقة) مكتبة مصر، القاهرة، 1970، ص222–223.

34 ماركيوز: هربرت (العقل والثورة) ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات، ط2، 1979ص223.

وإذ قسم هيغل مساحة ذلك العالم إلى قطاعات ثلاثة شمالي وجنوبي وأوسط، فإن تقسيمه ذاك لم يكن لدراسة الجغرافية البشرية أو الطبيعية، أو لغير ذلك من أوجه البحث. وإنما بحسب القرب والبعد من وسط أوروبا حيث موطن قيام الأمم الجرمانية بيت القصيد وغاية مسار تقدم التاريخ على نحو ما رسمه. فقد عزا لكل قسم منها دوره الخاص في عملية بناء التاريخ وكيفية ظهور الوعي وامتلاك الحرية. فالقسم الشمالي يحضر باستحياء وفي وقت متأخر في عملية البناء تلك. لا بل إن حدود دوره الحضاري يكمن فقط في كونه يشكل حلقة وصل طبيعية مع آسية. وفي المقابل يحضر القسم الجنوبي من أوروبا والمحيط بالبحر المتوسط بوصفه مركزاً لتاريخ العالم ومسرحه، فحول هذا البحر تقع البؤرة المضطربة للحياة البشرية وهنا وجد روح العالم وطنه عندما لم يكن وسط أوروبا وشمالها متمدناً. تتبدى دلالاته في مختلف جوانب الحياة وفي كل ما أقيم في تلك المنطقة من صروح ومدنيات، فهنا تقع اليونان منارة التاريخ، وهنا تقع القدس في سورية وهي مركز اليهودية والمسيحية. وفي الجنوب الشرقي منه تقع مكة والمدينة مهد الديانة الإسلامية، ونحو الغرب تقع دلفي وأثينا، وإلى الغرب روما، وعلى شاطئه توجد مدينة الإسكندرية وقرطاج. إن البحر المتوسط هو قلب العالم القديم، الذي يتحكم فيه ويشع فيه الحياة ودونه ما كان يمكن تصور تاريخ للعالم، فقد اقتصر أمر البلاد التي تؤدي دوراً في التاريخ على البلاد التي تقع حول البحر المتوسط[35].

أما القسم الأوسط من أوروبا –لا بل وسط هذا الوسط – فيحضر بوصفه البيئة الطبيعية لحياة الروح بين ربوعه يبلغ مسار تقدم المدنية مثله الأعلى، وهاهنا أينعت كل المبادئ الأخلاقية والفكرية والدينية التي كانت قد استنبتت في العالم اليوناني الروماني. وقد اختزلت حروب يوليوس قيصر وفتوحات الاسكندر دلالات تحقق ذلك حدثاً ووعياً تاريخيين في ذلك العالم. لتبلغ الروح حيث موطن الأمم الجرماني أكمل

35 هيغل:(محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ) ص 167–168، 181، 186

درجات امتلاكها للوعي والحرية بعد عملية ثقافية قاسية طويلة الأمد استغرقت التاريخ كله. فهاهنا بلغ التاريخ غايته[36]. وهنا تحقق المضمون الميتافيزيقي للحرية تحققاً كاملاً، تجسد ذلك واقعا في دساتير تلك الأمم وفي قوانينها وتشريعاتها وفي كل جانب من جوانب حياتها في الفكر والواقع. أما هذا المضمون فهو الاعتراف بأن الإنسان حر بما هو إنسان، وأن الحرية تؤلف ماهية الروح[37].

ثالثاً : الجغرافية وإمكانية استقراء المستقبل :

حكم هيغل بضرورة استبعاد ما قام بين ظهراني العالم الجديد من مسرح تاريخ العالم إلى حينه لأن الطبائع السلبية قد حالت دون قيام تاريخ هنا، فبقيت ثقافة هذا العالم وطنية تماماً تنقضي بمجرد ما تقترب الروح منها. فإن قراءة مابين سطور الكيفية التي على نحوها رسم هيغل خطوط عرض وطول مسار تقدم التاريخ والقانون الداخلي الذي يحكم آلية وخطا مسار التقدم ذاك من جهة، والوقوف عند آرائه في تقدير حجم فعل الجغرافية وما سيكون عليه حضور فعل العامل البشري أيضاً في ذلك العالم وفي القسم الشمالي منه بشكل خاص. لاتحول دون القول بأن ذلك الاستبعاد لم يكن في واقع الأمر حكماً بالقطع بأن ذلك العالم لم ولن يدخل محراب ومسارات التاريخ والحضارة البشريين أبداً لا في الماضي ولا في المستقبل. وأن شعوبه وأممه لم ولن تكون لها تلك الأرواح القومية التاريخية المميزة التي ستحتل في حينها موقعاً على مسار تقدم التاريخ. بل إنَّ ذلك الاستبعاد هو في الجوهر استبعاد ظرفي مؤقت أو تعليق للحكم – على مبدأ ديكارت – في إمكان تموضع ما سيجري بين ظهراني ذلك العالم فعلاً على مسار تقدم التاريخ وتجسيده واقعاً عيناً لدرجة من درجات تقدم الوعي وامتلاك الحرية منطلقين فيما نذهب إليه في هذا من نقاط عدة:

36 غارودي. روجيه(فكر هيغل) ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ط2، 1983، ص51

37 هيغل: المصدر السابق، ص 88 .

– (إنّ الروح – عندهيغل– في حاضر أبداً، ولا يوجد عندها ماضٍ أو مستقبل، وإنما هي في جوهرها حاضر آتٍ. يشمل الشكل الحاضر لها في جوقة جميع الخطوات السابقة، وما التميزات والتنوعات – الأرواح القومية للشعوب والأمم التاريخية – التي تتكشف من خلالها سوى تطورات الطبيعة الجوهرية لها. وحلقات من التجسدات المتعاقبة لها، والتي تظل قائمة بعضها إلى جانب بعض... أما تلك التي تبدو أن الروح خلفتها وراءها فإنها تظل تمتلكها في أعماق حاضرها)[38].

– إن تغير شروط الوجود في المكان والزمان، أو التبدل في شروط الوجود التاريخي التي تفضي بتطور الروح إلى الانتقال من روح قومية لأمة تاريخية إلى روح قومية لأمة تاريخية أخرى. هو في حقيقة (انتقال من مبدأ إلى مبدأ آخر جديد، يخرج من قلب القديم . مبدأ آخر متأخر عن سابقه في الزمان ومتقدم عليه في درجة تمثله للروح الكلية. لأن حياة شعب إذ تثمر ثمرة معينة وتهدف إبراز المبدأ الذي تنطوي عليه. فإن هذه الثمرة لا تسقط مرة أخرى في مجرى الشعب الذي أنتجها وأنضجها. بل تصبح على العكس من ذلك عصارة مسموعة ضده . . وتذوق الجرعة يعني دماره على الرغم من أنه يعني في الوقت نفسه ظهور مبدأ جديد)[39].

– إنّه في التاريخ الكلي (لا تستطيع الأمة أن تنجز إلا مهمة واحدة داخل العملية الروحية الشاملة، ولا تهيمن إلا مرة واحدة في التاريخ، ولا يمكنها أن تزدهر إلا مرة واحدة)[40].

فقد ذهب هيغل إلى القول بأن أحوال الجماعة البشرية في ذلك العالم وأحوال وجودها لم تبق على حال الطبيعة التي كانت عليها بل تغيرت، وأن ذلك التغير كان

38 هيغل : المصدر نفسه، ص 156.

39 هيغل: المصدر نفسه، ص155.

40 هيغل: المصدر نفسه، ص166 .

في القسم الشمالي منه أكثر تعبيراً عن دلالات خطا سير الجماعة البشرية هنا في مسارات التاريخ، وأكثر تعبيراً عن دلالات ظهور وعي وامتلاك حرية. و ذلك لأن الفعل الإيجابي الأثر لطبائع الجغرافية وعناصر المكان ومكوناته في ذلك القسم هي أكثر إيجابية وأعمق أثراً في تحقيق ذلك التغير من طبائع جغرافية القسم الجنوبي . كما أن للعامل البشري هنا خصوصية حضوره وتميز حجم فعاليته، وهي خصوصية بنيت على أنقاض سكانه الأصليين، حيث إنَّ الأمة الأصلية هنا قد اختفت، أو هي على وشك أن تختفي. و السكان الفعليون هم في ذلك القسم الذين جاؤوا من أوربا في الأعم الأغلب، جاؤوا إلى موطنهم الجديد مستعمرين مستوطنين لا محتلين كما الأسبان سكان أمريكا الجنوبية. وعقيدتهم البروتستانتية– ديانة هيغل والتي تمثل عنده أكمل الديانات–[41] وأنظمة الحكم التي عرفوها والعادات والتقاليد والأعراف والمبادئ والتشريعات وأنماط الحياة وأساليب العمل والمهارات التي حملوها معهم إلى موطنهم الجديد أمريكا الشمالية، هي أكثر تمثلاً لوعي الروح بذاتها وأكثر تعبيراً عن امتلاكها لحريتها، وأرحب فضاء مما تنطوي عليه الكاثوليكية عقيدة الأسبان ومن أساليب الحكم وأنظمة الاجتماع والتنظيمات والمؤسسات التي حملها معهم المهاجرون الأسبان إلى الجنوب حيث استقروا وأقاموا غزاة مغتصبين محتلين. في مجمل ذلك يقول هيجل: (أنت تشاهد في أمريكا الشمالية وضعاً مزدهراً ونمواً في الصناعة، وازدياداً في السكان، وحرية راسخة ونظاماً مدنياً وذلك جراء تناغم فعل الجغرافية والعامل البشري والعامل السياسي، وعامل آخر خاص بالدين)[42].

وضمن إطار الرؤية السابقة تلك نجد أن هيغل قد استقرأ وبحدس كبير، أن في العالم الجديد الموطن الجغرافي لظهور المبدأ التاريخي التالي موطن الأمة التاريخية أو

41 ستيس، ولتر، (هيغل. فلسفة الروح)، ترجمة إمام إمام، دار التنوير بيروت، ط2، 1982، ص196–200

42 هيغل: المصدر نفسه، ص162، 160– 164

الشعب التاريخي الذي ستجد الروح الكلي في روحه القومية تجسداً فعلياً واقعاً وحياً لمرحلة تاريخية قادمة على المسار الديالكتيكي لعملية تقدم التاريخ والحضارة البشريين. وفي ذلك جاء قوله: (.. أمريكا هي أرض المستقبل فهاهنا– سوف يتكشف في العصور القادمة عنصر مهم من عناصر تاريخ العالم. وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. إنها بلاد الأحلام لكل أولئك الذين ملوا وضجروا من مخزن الأسلحة التاريخي في أوربا القديمة...)[43].

وهكذا نصل مع الرؤية الهيغلية لدور العامل الجغرافي في التاريخ إلى القول:

–إن فعل الجغرافية يحضر بقوة في العملية الشاملة لبناء التاريخ والحضارة البشريين وفق الرؤية الهيغلية والتي بالغت في تقدير حجم وعمق آثاره في قيام المدنيات وفي الوقوف دون قيام ذلك متجاوزةً حقيقة أن الجغرافية وحدها لا تصنع تاريخاً وإن كانت شرطاً من شروط تحقق ذلك.

–لا يستفاد من المواقع الجغرافية لمسار تقدم التاريخ على النحو الذي رسمته الرؤية الهيغلية الوقوف على العلاقة بين الجغرافية والتاريخ بقدر ما يتوافق ذلك والغاية التي حدها هيغل لمسار التقدم ذاك والتي تجد تحققها في ربوع الأمم الجرمانية ولدى شعوبها .

- إن تحديد هيغل لجغرافية ومواقع خطا تقدم مجرى التاريخ الكلي لم يخلُ من تمجيد العالم الغربي والثناء على كل ما هو قريب منه في المكان وفي طبائع الوجود وأحواله.

– فقد تكشفت الرؤية الهيغلية لطبيعة فعل العامل الجغرافي في التاريخ عن نظرة عنصرية ظهرت بوضوح شديد في آراء هيغل بسكان القارة السمراء، وفي الهنود الحمر، وفي حضارات العالم الشرقي، وحتى في الاسبان أبناء قارته وفي ديانتهم.

43 هيغل: المصدر نفسه، ص 161

- وقد استحضرت الرؤية الهيغلية العامل الجغرافي بما يتناسب والكيفية التي على نحوها ربطت بين الديناميكية الهدامة للفكر وبين التقدم التاريخي نحو الكلي، ومواطن تموضع الأرواح القومية للشعوب والأمم التاريخية التي قيد لها وفقاً لتلك الرؤية أن تمثل درجة من درجات تقدم ذلك الكلي .
- إن استقراء هيغل لمستقبل العالم الجديد يثير الدهشة ويستدعي التأمل وإعمال العقل، كما يستوجب السؤال، هل بإمكان الفلسفة فعلاً أن تقرأ آفاق المستقبل ؟ وهل تبقى الفلسفة سؤالاً دائماً يكشف باستمرار ثراء الفلسفة وغناها كما يكشف عن حيوية حضورها وصلاحها ؟.

المصادر والمراجع

-إبراهيم :زكريا: (هيغل أو المثالية المطلقة) مكتبة مصر، القاهرة، 1970 .

-برينتون، كرين: (تشكيل العقل الحديث) ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد82، 1984

-رسل:برتراند: (حكمة الغرب) ترجمة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد2، الكويت، 1983.

-ستيس: ولتر (هيغل. فلسفة الروح) ترجمة إمام إمام، دار التنوير، بيروت، ط2، 1982.

-ستيس: ولتر (فلسفة هيغل:المنطق وفلسفة الطبيعة) ترجمة إمام إمام، دار التنوير، بيروت، ط2، 1982.

-سيرو: رينيه (هيغل والهيغلية) ترجمة نهاد رضا، دار الأنوار، بيروت.

-الشيخ: د. رأفت غنيمي (فلسفة التاريخ) دار الثقافة القاهرة، 1988.

– صبحي:د. أحمد محمود : (في فلسفة التاريخ) مؤسسة الثقافة، الإسكندرية.

– لوفيت:كارل(من هيغل إلى نيتشه) ج1 تعريب ميشيل كيلو، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988 .

– ماركيوز: هربرت: (العقل والثورة) ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ط2 .

– هيبوليت. جان: (مخل إلى فلسفة التاريخ عند هيغل) ترجمة أنطون حمصي، وزارة الثقافة، دمشق، 1969

– هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ:العالم الشرقي) ترجمة د. إمام إمام، دار التنوير، بيروت ط2، 1983.

-هيغل: (محاضرات في فلسفة التاريخ:العقل في التاريخ) ترجمة د. إمـــام إمـــام، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983

-هيغل(محاضرات في تاريخ الفلسفة) ترجمة د. خليل خليـــل، المؤســـسة الجامعيـــة للدراسات، بيروت، ط1، 1986

-هيغل:(أصول فلسفة الحق)مج1، ترجمة د. إمام إمام، دار التنـــوير، بيـــروت، ط2، 1983 .

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2007/3/20.